صور الحجاج ووظائفها الإبلاغية: نماذج تطبيقية من القرآن الكريم

Forms Of Arguments And Their Informative Functions: Applied Patterns From The Holy Quran.

أنفال زيداني*
جامعة محمد لمين دباغين- سطيف2(الجزائر)
an.zidani@univ-setif2.dz

يوسف وسطاني
جامعة محمد لمين دباغين- سطيف2(الجزائر)
Youcef_ammar@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2023/04/07	تاريخ القبول: 2023/06/03

الملخص:

إنّ القرآن الكريم أعلى درجات البيان، وهو بذلك متن لغويٌّ لا ينضب لجميع الدراسات اللّغوية التي استُنبِطَت منه بالأصل، فأضحت مفاتيحَ لفهمه وتدبّره، ومن بينها: الحجاج الذي نجده مبثوثا في ثنايا الدراسات اللغوية العربيّة الأصيلة، وهو مِن أبرز مباحث التّداولية، وانطلاقا مما سبق نحاول في هذا المقال من خلال المنهج الوصفي استقراء وتحليل بعض آيات القرآن الكريم لنقف على بعض ملامح الحجاج وصوره موضّحين وظائفه الإبلاغية القائمة على التّأثير والإقناع؛ حيث نجيب عن التّساؤل الآتي: ما هي صور الحجاج؟ وفيمَ تتمثل وظائفها الإبلاغية؟

لنصل في الختام إلى أن الحجاج أداة من أدوات الإقناع والتّأثير في نفس المتلقي بصور مختلفة، وبوسائط لغوية متنوّعة وفي مو اقف وسياقات مختلفة.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، القرآن الكريم، التداولية،وظائفها الإبلاغية.

Abstract:

The Holy Quran is the highest level of explanation. Therefore, it is an inexhaustible linguistic body for all linguistic studies that were originally derived from it, so they became the keys to understanding and contemplating it. For instance, the arguments that we find fixed in the folds of Arabic, original linguistic studies and it is one of the most deliberative methodology researches. Accordingly, based on the aforementioned, we attempt in this article, through the descriptive approach, inducing and analyzing of some verses of the Holy Quran, in order to let us stand on some features and forms of arguments, clarifying its informative functions based on influence and persuasion; Where we answer the following question: What are the forms of arguments? What are their informative functions represented?

Ultimately, we conclude that arguments are a tool of persuasion and influencing in the soul of the recipient in different ways, through various linguistic means, and in different situations and contexts.

Keywords: Arguments, The Holy Quran, deliberative methodology, Informative functions.

* المؤلف المرسل: أنفال زيداني

مقدمة:

مما لا ريب فيه أن الوعي بأهمية بلوغ المخاطب أهداف القول ومصادرة الكلام كان سابقا على الوعي باللغة نفسها، وكان بديهيا أن يتمحور كلام الإنسان على الحاجات الأساسية في حياته، واستدامة الضرورات التي تصون وجوده، ولعلنا ندرك أن استشعار تأثير الكلام في المخاطبين به أمر جوهري في عملية الاتصال والتواصل، هذه العلاقة التي يقيمها الإنسان مع بني جنسه، بنسق لغوي خاص من صياغة كلمات وعبارات ونصوص وخطابات لتحقيق عملية الإبلاغ التي تتسم بالفهم والتأثير، وليس مجرد إقامة التواصل المعتاد؛ بل يتعدى ذلك إلى إنتاج خطابات لا تستنفد كل طاقاتها في سياقات التلفظ بها، وتتجاوز ذلك إلى وظائف ترتبط بواقع بديل لدواعٍ مختلفة، وبهذا يكون النص أو الخطاب مستودع أسرار، يتطلب مستويات أعمق من الفهم والتأويل، ومن أجل هذا جاءت الدراسات اللغوية ومنها البلاغية تحديدا؛ لتفسير ما استعصى فهمه، ولإعطاء معنى لكلام لا يبعث عليه التلفظ به فقط؛ بل يتعداه إلى دلالات تستوجب سعة الفِكر والتّأمل، والاستقراء والتحليل، وذلك عبر مباحث لغوية متنوعة، ومنها ما يُعرف اليوم ب"الحجاج"؛ والذي يُعدَ من أبرز مباحث التداولية.

ونظرا لأهمية الحجاج في فهم الكلام وتبليغ المقاصد والتأثير على المتلقي، فإننا نجده بارزا في القرآن الكريم بأعلى درجات البيان، لتبليغ الرسالة الربانية للإنسانية وجب تدبّرها، وعليه ارتأينا أن يكون موضوع بحثنا في مفهوم الحجاج وصوره ووظائفه الإبلاغية من خلال تحليل نماذج قرآنية مختارة، بعد طرح التساؤل التالي: ما صور وأنماط الحجاج في القرآن الكريم؟ وفيم تمثلت وظائفها الإبلاغية؟

وللإجابة عن تساؤل الموضوع وتحقيقا لمقاصده كان الأنسب الاعتماد على المنهج الوصفي ، وفق العناصر الرئيسية الآتية:

- مُقدَمة.
- الحجاج بين البلاغة العربية والدرس اللساني الحديث..
- صور الحجاج وإبلاغيتها: نماذج تطبيقية من القرآن الكريم.
- خاتمة: تُستعرض فيها أهم نتائج البحث.

1- الحجاج بين البلاغة العربية والدَرس اللساني الحديث:

1-1- مراتب الكلام العربي:

لعلَه من المفيد الإشارة إلى مسألة مهمّة، عنى بها اللغويون أيَما عناية وهي مسألة أوجه ومراتب الكلام العربي،تناول اللغويون العرب مسألة مراتب الكلام في جُلَ مصنفاتهم، واستوفوا وصفه وحدّه، يقول ابن هشام الخضراوي في هذا الباب: «اعلم أنهم يستعملون غالبا، وكثيرا، ونادرا، وقليلا، ومطّردا، فالمطَّرد الذي لا يتخلف، والغالب أكثر الأشياء، والكثير دونه، والقليل دون الكثير، والنادر أقل القليل.»[1]، وهذا الأمر مهم جدا في الدرس اللغوي؛ فلولا تلك الحدود العلمية الموضوعة من طرف

اللغويين لأهملت أشياء كثيرة من اللغة واختلط الفصيح المأخوذ به بالضعيف، ولالتبس الأمر واستُعصي على الدارس.

ويُقسَم سيبويه (ت180ه) الكلام مُركِّزا على وصول المعنى إلى المتلقي من حيث الاستقامة إلى: حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، ومحال كذب. يقول: « فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسآتيك غدا، وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدا، وسآتيك أمس، وأما المستقيم الكذب فقولك: حملتُ الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح، فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكي زيدا يأتيك، وأشباه هذا، أما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس»[2]؛ وتصنيف سيبويه هنا لمراتب الكلام مبني على توافقه وتعارضه مع منزلة المعنى، لذلك نُميز مستويين أساسيين للكلام عند البلاغيين قديما وحديثا.

- فالأول: المستوى النَمطي: ما يُمثَل الحد الأدنى لبلاغة الكلام، وهو ما تحقق فيه لزوم الجادّة، وكان موافقا للصواب موسوما بالصحة اللغوية، ويُعدَ الوقوف عند هذا الحد- حدَ الإفهام_ أدنى مراتب البلاغة، التي إذا ما خرج المتكلم عنها لم يصح وصف نطقه بالكلام.
- والثاني: المستوى الفني من الأداء فهو الذي يحرص فيه المنشئ على الدقة في اختيار ألفاظه وصيغه، ومراعاة الخصائص الفارقة بينها، فالمفترض أنَ المُبدع يُوظَف في إبداعه كل الإمكانات اللغوية المتاحة لديه؛ بحيث يُفيد من كل اختلاف شكلي بين الصيغ والألفاظ لمناسبة المعاني المراد بيانها[3]، وممَا يجدر الإشارة إليه أنَ تمايز هذين المستويين من المعنى كان شائعا في الدرس البلاغي العربي، وكان ذلك جليا إلى فترة متأخرة اكتملت فيها مباحث البلاغة، وبلغت الغاية تنظيرا وتطبيقا.

وعلى أساس هذا التمايز بين المستويين النمطي والفني في مراتب الكلام بعملية التواصل تلتقي الدراسات اللسانية الحديثة بالدراسات البلاغية في تراثنا العربي، وسنتبين ذلك من خلال العناصر اللاحقة التي سيوردها البحث، كما نود أن نُنبه على أمر؛ وهو أن غاية المتكلم أو البلاغي في عمليتي الاتصال والتواصل ليست مُجرّد التحسين اللفظي؛ بل ينبغي أن تكون الغاية بالمقام الأول تكثير الفائدة، وجمع دقائق المعاني المراد بيانها، والحفاظ على شُعبها أن يُمدَ منها شيء عند التعبير والإبانة؛ فإنما مدار الفصاحة والبلاغة توفية المعاني حقها وبلوغ كنه ما في النفس من معان مع القدرة على إيصالها للمخاطبين[4]، وبعد التعرض في هذه اللفتة السريعة إلى ما جاء به علماؤنا العرب حول مراتب الكلام العربي ومُستوييه الأساسيين في عملية التواصل والإبلاغ، ننتقل للحديث عن الحجاج الذي لا تكاد تخلو منه عملية تواصلية تهدف إلى التأثير والإقناع.

1-2- في معنى الحجاج:

أ- لغة:

الحِجاج بكسر حرف العين، هو مفهوم مشتق من الجذر الثلاثي "حَجَجَ"، الذي نجده واردا في أغلب المعاجم العربية بمعنى: الجدال بسبب اختلاف في الوجهة أو الرأي ، مع تبيان الدليل على الرأي أو

المفهوم المرغوب إثباته، كما أنه يحمل معنى استخدام البرهان عند الدفاع عن رأي ما أو اتفاق على رأي معين بين مجموعة من الأشخاص، يعتمدون على مجموعة من البراهين التي تدل عليه، فقد جاء في أساس البلاغة للزَمخشري: « حاجَّ خصمه فحَجَّه، وفلان خصمه محجوج »[5]، ومعنى" محجوج": مغلوب، والشخص المتكلم هو المُحاجِج؛ أي: الغالِب، والمحاجَج: السامع المغلوب، الذي اقتنع بحجة المتكلم، وهذا يدل على أن الحِجاج يُستخدم في النقاشات و المجادلات...من أجل تثبيت مفهوم، والرد على المفاهيم الأخرى التي تُشابِه الفكرة، وتختلف بالمعنى أو العكس، ولعلنا نُحيل مصطلح "الحجاج" إلى أصله في اللغة الأجنبية فنجد أن: "كلمة "Argument" من الفعل اللاتيني "Arguere"، وتعني جعل الشيء واضحا ولامعا وظاهرا، وهي بدورها من جذر إغريقي(argues) و يعني أبيض لامع"[6].

من خلال ما سبق يتضح أن التعريفات اللغوية لـ"حِجاج" تتمحور حول: الإقناع وإظهار الحقيقة بواسطة الأدلة و البراهين، كما يدل على النزاع والجدل والخِصام.

ب- اصطلاحا:

تتفق التعريفات التي تعطى للحجاج على أنه: بذل الجهد في الخطاب لغاية الإقناع، وأن يبنى على التفاعل والاختلاف في الرأي، وأن يظل مفتوحا أمام النقاش و التقويم...،فقد تعددت تعريفاته من حقل معرفي لآخر" حسب العلوم التي يُوظَف داخلها، أساسا أو عرضا، فهو يُمثَل تلك الخُطوات، التي يُحاول بها الشخص أو الجماعة أن تقود المُستمع إلى تبنَي موقف مُعيَن، وذلك بالاعتماد على تمثيلات ذهنية مُجرَدة أو حسيَة ملموسة، أو على قضايا جازمة، تهدف إلى البرهنة على صلاحية رأي أو مشروعيته"[7]، فمن هذا نفهم أنَ الحجاج يحضر في كل أنماط الخطاب التي تنزع منزعا تأثيريا لا يقين فيه ولا إلزام، ولا يمكن أن يوجد حِجاج دون تواجد نقاط اختلاف تحتاج إلى استعمال الحُجج والبراهين، ومن أجل ذلك ينبغي التمييز بين نوعين من المؤشرات الحجاجية: - الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية؛ فالأولى تربط بين قولين، أو بين حجتين أو أكثر، وتسند لكل قول دورا محددا، منها: بل، لكن، لاسيما، إذن، بما أن، إذا...إلخ.

أمَا العوامل الحجاجية فهي لا تربط بين حجة ونتيجة، أو بين مجموعة حجج؛ بل تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية لقول ما، ومنها: ربما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، ما، إلا...، وكل أدوات القصر، وهذه الأدوات تعد قوالب تنظم العلاقات بين الحجج والنتائج، كما أنها تعين على تقديم الحجج بما يتناسب والسياق، واستنادا إلى النظريات الحجاجية يمكن تصنيف وسائل الحجاج وأدواته بعامة إلى[8]:

- الأدوات اللغوية الصرف، مثل: ألفاظ التعليل، بما فيها الوصل السببي، والتركيب الشرطي، الأفعال اللغوية، الحجاج بالتبادل، الوصف، تحصيل الحاصل.
- الآليات شبه المنطقية يجسدها السلم الحجاجي بأدواته وآلياته اللغوية، وتندرج ضمنه العديد من الأدوات اللغوية، كالروابط الحجاجية (لكن، حتى، فضلا عن، ليس كذا فحسب، أدوات التوكيد)، درجات التوكيد، الإحصاءات، بعض الآليات والصيغ الصرفية: مثل التعدية بأفعال التفضيل، القياس، صيغ المبالغة...إلخ.

- الآليات البلاغية، مثل: تقسيم الكل لأجزائه، الاستعارة، البديع، التمثيل، وباقي الصور البيانية التي تعد من أبرز الأساليب الحجاجية لما لها من أهمية كبيرة في التأثير والإقناع.

وبناء على المفهوم اللغوي والاصطلاحي للحجاج، يتبين لنا أن جذوره مبثوثة في الدرس اللغوي العربي، وبالتحديد في البلاغة العربية، وهذا ما سنتناوله في العنصر الموالي.

1-3- الحجاج في البلاغة العربية:

نستطيع أن نقف في هذا المقام على معالم هادية ومحاولات جادة يمكننا عن طريقها الوقوف على توضيح المفهوم الحجاجي في التراث العربي واللسانيات الغربية، ومما يدفع لمعالجة موضوع الحجاج في التراث العربي هو التأصيل له عند العرب، وقلة أهمية الدارسين بتبيين القضية الحجاجية في الدراسات العربية مع توجيه الدرس التطبيقي صوب القرآن الكريم، وبالبحث في مفهوم الحجاج وملامحه ومظاهره في التُّراث البلاغي العربي، سنجد أنه مرتبط بالبلاغة؛ حيث تمثله ثلاث توجهات رئيسية: الجاحظُ (توجه بلاغي خطابي)، ابن وهب (توجه بلاغي بياني)، السَكاكي (توجه بلاغي منطقي)، وفي السطور الموالية عرض موجز لأهم هذه التوجهات التي شكلت ركيزة التراث البلاغي العربي، مُمثَلة في:

أ- الحجاج عند الجاحظ:

تجلَت العلاقة بين البلاغة والحجاج في البلاغة العربية بأوضح صورها عند الجاحظ، وبالضبط في إشاراته الكثيرة إلى أدوات البيان ووسائله، وقد ورد لفظ البيان في القرآن الكريم بصيغة المفعول به في قوله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن: 1-4]، وهو ذكر لما ميَز به الله الإنسان عن سائر الحيوان، من القدرة على الإفصاح عن مكنونات النفس بالكلام؛ فهو "المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير"[9]، وهو عند الجاحظ "اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كشف لك قِناع المعنى، وهَتَكَ الحُجُب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيانُ، ومن أيِّ جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[10]. فالبيان عنده هو الفهم والقدرة على إبانة ما في الضمير لإقناع المتلقي، وتصوره للبيان هو وليد بلاغته؛ إذ كان الجاحظ "يمتلك القدرة على الاحتجاج للشيء ونقيضه، كأن يحتج للبخل ويظهره في صورة تدبير وإصلاح، أو يحتج ضده فيخرجه في صورة شائهة ساخرة تنزل بالبخلاء إلى أسفل الدركات"[11]، فهو يتسم بالمقدرة البيانية على التحكم في الخطاب ووسائله وقُوة الإقناع في شتى المواقف والقضايا.

إن دراسة الحجاج عند الجاحظ ارتبطت بدراسته للبيان، الذي اهتم فيه بالفهم والإفهام، وبذلك مفهوم البيان عنده يتلخص في المعرفة والإقناع كمفهومين ووظيفتين في آن معا ؛ البيان معرفة: الوظيفة الإفهامية، البيان إقناع: الوظيفة الإقناعية.[12]

إذن نكتفي بهذا القدر حول رؤية الجاحظ البيانية الحجاجية، والتي ظهرت في وقت مبكر من تاريخ الدارسات البلاغية العربية، ونشير إلى أن الحجاج وما يتصل به من مباحث وخصائص نصية ومقامية

قد تناولتها مصنفات عربية عديدة بعد الجاحظ، لكن تناوله له (الحجاج)، وإن لم يكن مستقلا بنفسه؛ بل مبثوثا ضمن البيان، إلا أنه شمل معظم عناصر المقام ومحدداته الداخلية والخارجية وأدوارها الحجاجية...؛ فالبيان الذي دعا إليه إنما هو حجاج بالمعنيين البلاغي والاجتماعي[13]، فقد كان " للحدث الكلامي" عند الجاحظ مكانة عظيمة، فهو أول مفكر عربي نقف في تراثه على نظرية متكاملة تُقرَر أن الكلام وهو المظهر العلمي لوجود اللغة المجردة، ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعى فيه بالإضافة إلى الناحية اللغوية، جملة من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال، وكل ما يقوم بين هذه العناصر "غير اللغوية" من روابط... وتحتل الوظيفة وهي في مصطلحه "الغاية" و"مدار الأمر" حجر الزاوية في هذا البناء؛ لأنها الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه هذه الأطراف.[14]

1-4- الحجاج في الدّرس اللّساني الحديث:

يُعدَ الحجاج أهم مباحث التَداولية، ونظرية غربية حديثة متناولة من جانبين؛ جانب تداولي وقد ظهر ذلك من خلال أعمال "ديكرو" وجانب بلاغي مع "بيرلمان وتيتيكا"*، ولذلك عدّت نظريتهما في الحجاج قديمة جديدة؛ قديمة من حيث منشؤها جديدة من حيث تفعيلها وإحياؤها في هذا العصر،فقد وضع هذان العالمان أساس النظرية الحجاجية رغم اختلاف توجههما، علما أن البحث الحجاجي له جذوره التي تمتد إلى اليونان وبالتحديد إلى "أرسطو" الذي أرسى معالم الدرس الحجاجي الغربي، ولهذا استفاد الدرس الحجاجي الحديث من التراث اليوناني القديم، وحاول بعثه في ثوب جديد ألا وهو النظرية الحجاجية[15].

أ- الحجاج عند بيرلمان وتيتيكا (Pereleman et Tyteca):

يُنزل بيرلمان في مؤلفه المشترك مع تيتيكا(traité de l'argumentation)، الحجاج بين الخطيب والجمهور الذي ظهر من قبل باسم (الخطابة الجديدة) (La nouvelle Rhéthorique)؛ أي أن يكون هناك تفاعل بين الخطيب والجمهور، ونجد صلته بالخطابة الأرسطية واضحة، ويعرف المؤلفان الحجاج بأنه: " درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"[16]، ويدَعيان أن: إذعان العقول بالتصديق لما يطرحه المرسل، وأنجح حجة هي تلك التي تنجح في تقوية حدة الإذعان عند من يسمعها وبطريقة تدفعه إلى المبادرة سواء بالإقدام على العمل، أو الإحجام عنه، أو هي على الأقل ما يحقق الرغبة عند المرسل إليه في أن يقوم بالعمل في اللحظة المناسبة.[17]

ويوجز(بيرلمان وتيتيكا) الحجاج في تعريف جديد لهما،فيقرران أنه "جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفة هي حمل المتلقي على الإقناع بما تعرضه عليه والزيادة في حجم هذا الإقناع مُعبرا عن غاية الحجاج الأساسية إنما هي الفعل في المتلقي على نحو يدفعه إلى العمل أو تهيئته إلى القيام بالعمل".[18]

إن مثل هاته الجهود المبذولة اليوم في التنظير والتوظيف للخطاب البلاغي لجديرة بالاهتمام والمدارسة، ومَرَدَ ذلك قدرتها على فك شفرات الخطاب البلاغي، والكشف عن مُكوناته الحجاجية

والإقناعية والتداولية، وعليه سنطرق مقاربة الوظائف الإبلاغية لصور الحجاج وقدراتها التأثيرية الواردة في بعض الآيات القرآنية.

1-5- صور الحجاج:

تتعدَد أشكال الحجاج بتعدد وظائفه وأهدافه، وطبيعة الخطاب المُحتج حوله والسياق أو المقام الذي تم فيه؛ إذ أنها توجد أوجه وصور عديدة للحجاج، إلا أنه يمكن أن نورد ما اشتهر منها: الحجاج اللغوي، الحجاج المحادثي أو الحواري، الحجاج القانوني.

أ-الحجاج اللغوي:

حيث تُعد اللغة بذاتها أداة حجاجية، يستخدمها البشر لإيصال الأفكار لبعضهم وإقناعهم بها، وقد وضع الأساس لنظرية الحجاج اللغوي، اللغوي الفرنسي "أزفالد ديكرو" و"جون كلود أوسكمبر"؛ حيث تتكون آلية الحجاج في اللغة من ثلاثة أركان هي الحجة والنتيجة والرابط بينهم[19]، والروابط الحجاجية متنوعة ومتعددة، تختلف في مدى تأثيرها، وفي تدعيمها للحجة وتقويتها.

وتتنوع أساليب ووسائل الحجج اللغوية في الخطاب الحجاجي بحسب الموقف، بين الوصف والسرد[20]، ومن العوامل اللغوية المؤثرة في الخطاب الحجاجي اللغوي بنية الكلمات والتقديم والتأخير والعلل الصرفية واللغوية الأخرى؛ لأن اللغة كل متكامل تشمل جميع المجالات، ومنها تُستقى المفردات حسب كل مجال، ويبقى المقام أوالسياق هو المحدِّد لذلك.

ب- الحجاج المحادثي(الحواري):

هو باختصار الأسلوب الذي يتبعه المتحاورون في قضية ما لإثبات آرائهم، من خلال استخدام مجموعة من الأدلة والبراهين والحجج المنطقية التي تؤيد موقفهم، وتدعم أفكارهم؛ للوصول إلى إقناع الطرف المقابل عن طريق الحوار والمحادثة.[21]

ج-الحجاج القانوني:

يمكن تلخيصه بأنه: "ما يذكر من خطابات حجاجية في مؤسسة قضائية ما، من قبل عدة أطراف، بهدف الوصول إلى نتيجة وقرار يُنفذه جميع الأطراف"[22]، وعليه يجب أن تتواجد في كل قضية حجاجية عناصرها الأساس: طرفا الحجاج (المحاجج والمحاجج) ، الوقائع المختلف حولها؛ والتي تدور حولها القضية، الحيثيات أو المُسوَغات (الحجج)، والنتائج، ويعجَ الحجاج القانوني بالعديد من الروابط الحجاجية منها على سبيل المثال: يُعلَل .يُبرَر، بأَّن، يبين، إذن... ، وما في معناها من مفردات تربط الحجج ببعضها وتدعم مواقف الحجاج.

2- صور الحجاج و إبلاغيتها في القرآن الكريم:

يعرض هذا العنوان عددا من النماذج القرآنية الموظفة لصور الحجاج توظيفا بلاغيا، بقصد الوقوف على وظائفها الإبلاغية في سياقاتها القرآنية، مستصحبين في تحليلها ما انتهى إليه البحث في صفحاته السابقة، ومنافعها بتحليلات البلاغيين والمفسِّرين التي تتسم بالأفق الواسع أكثر من الدراسات النظرية، كما يهدف البحث هنا إلى الوقوف على نماذج حية تُطبَق فيها المفاهيم لتشكل وسائط ناجعة في كشف مختلف المعاني وما وراءها من إيحاءات.

ولعل ذلك ما نرجوه من خلال هذه الدراسة، مما دفعنا إلى إدراج عبارة " الوظائف الإبلاغية لصور الحجاج" بهدف الوصول إلى قدراتها التأثيرية الإقناعية، بعد أن تستوفي شروطها التركيبية والأسلوبية في سياقاتها المختلفة، ولا مفر هنا من توضيح دلالة تلك العبارة المتعلقة بصور الحجاج، وابتعادا عن الاستطراد نشير إلى أن "التوظيف" للشيء يعني استخدامه بالملازمة والمصاحبة، فالحجاج بشتى صوره يوظف ويستخدم استخداما هادفا لأغراض معينة، وفي قالب لغوي وسياق مُعيَنين.

ونظرا لتعدد استعمالات الحجاج تعددت - كما رأينا سلفا- صوره، مما يعني أنه متعدد الوظائف، بحسب قدرة مستعمله على تضمينه العناصر المؤثرة التي يعكف على تضافرها لتشكيل خطاب حجاجي قوي يستقبله المتلقي بإقبال فاهما له، متأثرا مقتنعا به، وذلك ما أشرنا إليه بمصطلح " الإبلاغية "، فما الإبلاغية؟ ومتى يكون للحجاج وظائف إبلاغية؟

إنّ تلك الصور بخصائصها الفنية التي تشكل نقطة الإبداع في الحجاج بمختلف وسائله هي الواسطة التي تحمل مقتضيات "الإبلاغية" في الكلام، ولاشك أن من أسباب تفوق الحجاج أداء وتأثيرا على بقية وسائل الخطاب في الإقناع أنه يفوق الجانبين الفكري والموضوعي للكلام، ويفوق عملية توصيل الأفكار، لأنه يتجه إلى القيم الانفعالية في اللغة، بتضافر أساليب اللغة العربية الفصحى التي تعج بذخائر إبلاغية تتكامل وفق أنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية.. "إن هذا المصطلح في جوهره، طريقة تعبير، وأسلوب تواصل، يقصد به في البلاغة العربية...مجموع الشحن النفسية المتوارية في نص أدبي، أو في أحد أجزائه، في تلك الصور البيانية النابضة بالحياة، ذات القوة التأثيرية على المتلقي، سواء كان سامعا أم قارئا."[23]

ولا يُنكر أن توافر تلك العناصر ضرورة في العمل الإبداعي لا بد منها في مجاله، وذلك ما يقودنا للحديث عن البلاغة العربية ونخص بذلك علم البيان لما يمتاز به من تلك المواصفات اللغوية والأسلوبية التي يتفرد بها؛إذ أنه يضم التشبيه بمباحثه وأنماطه، والكنايات والاستعارات، وكافة أنواع المجاز...

2-1- النموذج الأول: الحجاج اللغوي:

تمثَل القرآن الكريم الحجاج اللغوي في مواضع عديدة، منها قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾ (آل عمران: 14)

- يحذر عز وجل في هذه الآيات المسلمين ألاَ يغتروا بحال الذين كفروا، فتعجبهم زينة الدنيا وتلهيهم عن الآخرة، مستخدما حججا واقعية توضح مدى تمسك الإنسان بهذه الحياة وملذاتها؛ إذ أنه ذكر حجة مجملة أو عامة (حب الشهوات) ثم تلتها الحجج الشارحة لها:

- ح1: النساء والبنين.

- ح2: القناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

- ح3: الخيل المسومة والأنعام.

-ن: ذلك متاع الدنيا الزائلة وأن الآخرة خير وأبقى، نلحظ أن هذه النتيجة، ألا وهي الدعوة إلى عبادة الله وترك ملذات الدنيا والإقبال على الآخرة، جاءت مقرونة بعدد من الحجج المتتالية والمتسلسلة والمعطوفة على بعضها بحرف الواو الذي هو من حروف المعاني، له أربعة عشر قسما ذكرها المرادي في كتابه الجنى الداني منها: العاطفة والمعية والاستئناف والقسم والحال وواو رُبَّ وواو الثمانية...[24]، ومذهب جمهور النحويين ذكروا أنَّها للجمع المطلق، والتشريك؛ لأنَّها لا تخلو أن تعطف مفرداً على مفرد، أو جملة على جملة،غير أن أبرز معنى أفادته هنا هو الجمع المطلق، وإشراك ما قبلها وبعدها في الحكم، ألا وهو حب الشهوات، كما أنها من أبرز الأدوات اللغوية التي تربط بين الحجج؛ لتُبين مدى اهتمام الإنسان بالدنيا وغفلته عن الآخرة، ولقد قدم الله من الشهوات "النساء"؛ لأن تعلق الشهوة بهن أعظم، وذكر "البنين" وهو اسم معطوف على النساء لأنهم مُتولدون عنهن، وما ذُكر بعد ذلك فهو من الوسائل التي يصل بها الإنسان إلى مطالبه وحاجاته في الدنيا، فكان لفظ "الشهوات" استعارة للتعلق بهذه المقاصد، وفي قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾ (الكهف: 28)،فالزينة هي ما في الشيء من المحاسن، وكلمة زين قليلة الاستعمال في كلام العرب، يقول عمر بن أبي ربيعة:

أزمعت خلتي مع الفجر بينا جلل الله ذلك الوجه زينا

- وفي قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ﴾ حذف فاعل التزيين لعدم إدراك عموم المخاطبين له؛ لأن ما يدل على الغرائز والسجايا لما جهل فاعله في متعارف العموم، كان الشأن إسناد أفعاله للمجهول، لاسيما إذا كان المراد الكناية عن لازم التزيين[25]، وهو الإغضاء عما في المُزين من المساوئ، وقوله تعالى: ﴿المقنطرة﴾ "مبنية من لفظ القنطار للتوكيد، كما أريد بها المضاعفة المتكاثرة للمبالغة التي تؤدي إلى تأثير وإقناع المخاطب بالأمر وتوكيده له بإقامة الحجة، واقتران علامة المخاطب بأسماء الإشارة (ذلك)لإرادة البعد، والبعد هنا مجازي بمعنى الرفعة والنفاسة"[26]، مما جعل الآية القرآنية قوية حجاجيا من خلال تسلسل الحجج المستخدمة والتي كان الرابط بينها الواو، الذي أفاد تدعيم كل حجة من خلال ربطها وإشراكها ببقية الحجج الواردة في الآيات.
- ولمَا يصف الله تعالى حور العين يقول: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨)﴾ [الرحمن: 56-58]؛ أي لا ينظرن إلا لأزواجهن، غاضات لأبصارهن حياء، وهو كناية عن العفة التامة منهن، والسر في هذا النظم واختيار عبارة " قاصرات الطرف" على "عفيفات"؛ أنَ قصر الطرف أمر زائد على العفة؛ فقد تكون العفة رغم النظر إلى غير البعل، لكن قاصرة الطرف جمعت بين العفة وحبس النظر لبعلها فلا ترى أتم منه وأكمل، كما أن من صفاتهن أنهن لم ولن يقربهن إنس ولا جان لا قبل ولا بعد دخول الجنة، ولما تحدث جل وعلا عن جمالهن قال: (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)، فقدم صفة العفة والحياء على صفة الجمال، التي كانت مقرونة بالتشبيه المرسل المُجمل لوجود الأداة (الكاف)، ووجه الشبه (الصفاء)، فقد شبههن(نساء الجنة) لصفائهن وخلوصهن عن القبائح

ببياض اللؤلؤ وحمرة الياقوت(المشبَه به)، و"هنا تأكيد لما مضى لأنهن لما كُنَ قاصرات الطرف ممتنعات عن الاجتماع بالإنس والجن، فهنَ كالياقوت الذي يكون في معدنه والمرجان المصون في صدفه لا يمسه يد لامس"[27].

- ح1: قاصرات الطرف.
- ح2: لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان.
- ن: كأنهن الياقوت والمرجان.

نلحظ في هذه الآيات دقة انتقاء وقوة الألفاظ في إيراد الحجج، وحسن ترتيبهن وبيانهن لتحقيق التأثير والإقناع، فللَه بلاغة القرآن وحُجيَته.

2-2- النموذج الثاني: الحجاج المحادثي أو الحواري:

إن من أبرز صور الحجاج الحواري ما كان بين الله تعالى وملائكته، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ [البقرة: 30-33] .

تُبين الآيات الكريمة قصة خلق أول البشر الذي جعله الله خليفته في الأرض، وفي هذا الحوار بين الله تعالى وملائكته سيقت العديد من الحجج، فعطفت الواو انتقالا بالملائكة في الاستدلال على أن الله واحد، وعلى بطلان شركهم، وتخلصا من ذكر خلق السماوات والأرض، إلى خلق النوع الذي هو سلطان الأرض والمتصرف في أحوالها؛ ليجمع بين تعدد الأدلة، وبين مختلف حوادث تكوين العوالم وأصلها؛ ليعلم المسلمون ما علمه أهل الكتاب من العلم الذي كانوا يباهون به العرب، ونلحظ قوله تعالى: " قال" و" قالوا" أنه حكاية للمراجعة والمحاورة، وكانت "إذ" على هذا مزيدة للتأكيد، وكلام الله للملائكة أُطلق على ما يفهمون منه إرادته؛ وهو المُعبَر عنه بالكلام النفسي، فيحتمل أنه كلام سمعوه، فإطلاق القول عليه حقيقة وإسناده إلى الله؛ لأنه خلق ذلك القول دون وسيلة معتادة، ويُحتمل أنَه دال آخر على الإرادة، فإطلاق القول عليه مجاز مُرسل لم يُقيَد بعلاقة المُشابهة؛ لأنه دلالة للعقلاء والمجاز فيه أقوى[28]؛ حيث توافر على الروابط والعوامل الحجاجية (الواو، ثم، فاء التعقيب، ما النافية...)، التي أفادت تدعيم كل حجة من خلال ربطها ببقية الحجج الواردة في الآيات، وكذا الاستفهام التعجبي (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) لا على وجه الاستفهام والإنكار؛ بل للاستخبار عن المصلحة من ذلك؛ لمعرفة وجه الحكمة فيه، والتوكيد بالحرف المشبه بالفعل (إنَي) لاستجلاب المعنى وتوكيده للأذهان، وبالتالي التأثير فيها وإقناعها.

- وبدءا ب (وعلَم)، كل فعل فيه "علَم" بالقرآن الكريم هو منسوب إلى الله، إلا في مرات قليلة للغاية لدرجة أن الله عز وجل في سورة الرحمن مثلا قال: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣)

عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن: 1-4]،فكرر الفعل علم مرتين وهذا فيه دليل عظيم على عظمة هذا التعليم، وأن الحياة لا ترقى دون تعليم، لذلك لما قال ربنا:(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)، فهو عز وجل يريد أن يبين أن الإنسان مُيَّز بالعلم، وأن الجهل ينبغي أن يرتفع من هذا الوجود، ثم بعد ذلك نطرح سؤالا: لماذا قال ربنا: (وعلَّم آدم)، ولم يقل: (أعلم آدم)، ذكر علماؤنا أن ثمة فرق بين الإعلام والتعليم؛ فالإعلام إخبار سريع، والفعل "علَّم" فيه تضعيف وتشديد، وهذا يدل على التكرار، مما يدل على أن التعليم لا يكون أمرا سريعا، وإنما لا بد من التكرار حتى يظهر أثره في نفس الإنسان، ولنا أن نلحظ التناسب بين آيات القرآن، ربنا قال: (علَم)، وفيها تكرار جاءت بعدها الأسماء بالجمع وليس الاسم، ثم بعد ذلك نلحظ التناسب بحرف العطف "ثمَ" في قوله: (ثمَ عرضهم) ولم يقل: (وعرضهم)، وهذا يدل على أن التعليم احتاج وقتا حتى يفهم آدم عليه السلام هذه الأسماء؛ لأن الأسماء كثيرة لا قليلة، فلم يكن العرض بسرعة على الملائكة، وإنما بعد وقت من تعليم الله عز وجل لسيدنا آدم عليه السلام، وهذا تناسب كبير بين آيات القرآن لتأدية الإبلاغية والتأثير من خلال قوة الحجج الواردة فيها ودقتها، ولنا أن نتساءل هنا كذلك: لماذا قال: عرضهم ولم يقل عرضها؟ في هذا نُدرك أن الأسماء منها ما يعقل ومنها ما لا يعقل، فعندما قال ربنا: ثم عرضهم، فهذا من باب تغليب ما يعقل، وكأنها أسماء العقلاء لا غيرهم، وفي هذا تكريم للإنسان، وبعد هذا العرض قال تعالى: (أَنْبِئُونِي)، نلاحظ أن الإنباء في القرآن الكريم لا يكون إلا للشيء العظيم، لذلك فالأسماء هنا شيء عظيم، لماذا؟ لأنها ميزت آدم على الملائكة، فهو يعلم وهم لا يعلمون، ثمَ إنه في قوله: (أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين)، هذا أمر دال على التعجيز؛ لأن الله عز وجل يعلم علما يقينيا أنهم لن يستطيعوا بحال أن ينبئوه عن هذه الأسماء، فقالوا: (سبحانك)، وفي الأول قالوا (نحن نُسبَح بحمدك)، وكأنهم يعتزون بهذا التسبيح، لكنهم في الأخير قالوا: (سبحانك)، وكلمة سبحانك في اللغة وفي القرآن، إنما هي علم على التسبيح، فكأن تنزيهك موجود يا الله، سواء أسبَحناك أم لم نُسبحك، فأقروا بقولهم (إنك أنت العليم الحكيم)؛ حيث أنه أخبرهم بذلك من قبل في قوله: (إنَي أعلم ما لا تعلمون)، وفي هذا الحوار نرى توّفر عناصر الحجاج المحادثي كاملة؛ المرسل هو الله، والمستقبل هم الملائكة وسيَدنا آدم عليه السلام، إضافة إلى البنية الحوارية التي تحتوي على الحجج والبراهين، وقد جاءت هذه الحجج مرتبة بشكل مُتدرج من الأضعف إلى الأقوى، بواسطة الروابط الحجاجية كما أسلفنا الذكر (الواو، الفاء، ثم)، والتوكيد (من خلال التكرار – كما أدرجنا سلفا- والتوكيد اللفظي (الأسماء كلَها)، وأداة التوكيد إنَّ)، مع أسلوب الشرط (بأداة الشرط إن) الذي أفاد التعجيز، وربط الجزاء بالشرط أنَ العلم بالأسماء عبارة عن القُوَة الناطقة الصالحة لاستفادة المعارف وإفادتها، وحقائق الأشياء وخصائصها، ومعرفة الذوات والمعاني، كل ذلك يستلزم ثبوت العالمية بالفعل، وصاحب الفعل هو الأحق بالاستخلاف في الأرض، والقوى الملكية تصلح لأعمال معيَنة لا تتجاوزها، وتصرَفها من توجيه الله؛ للوصول إلى نتيجة: أن الله يعلم مالا يعلم خلقه، وأنه غني عن عباده فهو العليم الحكيم، ونراه في سياق

المحاورة يُقدَّم الحجج بشكل عملي، وكما هو المعلوم الدليل التطبيقي أقوى من ذكر وجود بّينة، وهو انتقال منطقي في تسلسل السلَم الحجاجي.

2-3- النموذج الثالث: الحجاج القانوني

تندرج في القرآن الكريم العديد من القوانين والأحكام، التي جعلها الله إما ثوابا للمؤمنين أو عقابا للكافرين أو توضيح للتشريعات التي تحتاجها البشرية جمعاء، وقد كان الخطاب الحجاجي القانوني واضحا بقوة في الكثير من المواضع، منها:

- قال جل جلاله:﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)﴾ [يونس: 93]، هنا يبين الله أنه هو القاضي يوم القيامة، والحاكم بالعدل فيما اختلف فيه بنو إسرائيل من بعد ما جاءهم من العلم (الرسول وما أرسل به) فكفروا به، نرى في الآيات أن هناك إيجاز حذف، فقد أدرجت الحجج تُباعا والتي تنوعت فيها الأدوات الحجاجية (الواو: للابتداء، لقد: للتحقيق، الفاء: للتعقيب والترتيب، ما: النافية التي نفي بها الاختلاف لدى بني إسرائيل، الذين أنزلهم الله منزلة صدق بما فتح عليهم من بلاد فلسطين وما فيها من ثراء، إلى أن جاءهم الأنبياء والقرآن الكريم وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فهذا المحمل هو ما تناسب مع العامل الحجاجي (حتى) في قوله عز وجل: ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾، فعندما اختلفوا بما جاءهم سُلبت منهم النعمة بأن سلبهم الله منزلهم وأوطانهم[29]، واختُتمت الآية بخير مؤكد ب(إنَّ) لفعل القضاء (يقضي)، يتخلله ظرف المكان (بين) المتعلق بتبيين الحق من الباطل، كما تضمنت الآية أسلوب تقديم الجار والمجرور (فيه) على الفعل والفاعل (يختلفون)، ذلك أنَ الاهتمام يخص الأمر المختلف فيه وليس الاختلاف نفسه، وسبقه أسلوب تقديم كذلك للجار والمجرور(بينهم) على ظرف الزمان(يوم القيامة)، وتكمن بلاغة هذا الأخير في التخصيص والعناية بالذي اختلفوا فيه، فالقضاء بينهم لله يوم القيامة، مما نلحظ تقديم الأفراد على اليوم؛ لأن (اليوم) هو زمن وقوع الاختلاف بينهما، والأهم هو بين من وقع الاختلاف (البشر)، هذا الاختلاف الذي هو أساس كل قضية حجاجية، فنرى هنا أن هذه الأخيرة مكتملة العناصر، ولعلنا نوردها كما يلي:

— طرفا الحجاج: بني اسرائيل.

— الوقائع: اختلافهم حول ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

— الحيثيات والمسوغات(الحجج):

- ح1: بوأهم الله مبوأ صدق؛ أي: أنزلهم منزل صدق، وقد ذكر بعض المفسرين أنها الشام ومصر
- ح2: ورزقهم من خيرات الأرض المباركة.
- ثم انتهى الخطاب الحجاجي بنتيجتين:

- الأولى: أنه بعد أن أنزلهم منزلا مباركا ورزقهم من ثمرات الأرض، كان منهم أن كذبوا بما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم، والثانية: وهي نتيجة عامة وفاصلة لهذا الاختلاف والتكذيب وهي: أن الله

هو الحاكم والقاضي بينهم يوم القيامة (بالثواب للمؤمنين فيدخلهم الجنة، والعقاب للمكذبين فيدخلهم النار)، فقد وقع هنا إيجاز حذف، والنتيجة كانت مضمرة لما سبقها من الحجج الصريحة المذكورة آنفا.

- وفي قوله تعالى:﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)﴾ [النمل: 69]، دعوة للتأمل في الكون، وكيفية عقاب الله للمجرمين الكافرين، فهذه الآية تحمل برهانا وحجة لمن يعتبر من الأمم السالفة ويرى كيف كان عقاب الله تعالى لمن كفر وأجرم وأفسد، حيث بدأت الآية بذكر الدليل الذي يحمل في مضمونه العديد من الحجج التي تخدم النتيجة، فقد أورد جل جلاله فعل الأمر: (قُل) الموجه لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو وصية بالإبلاغ وفي هذا عناية خاصة بتبليغه؛ حيث أُمر بأن يقول لهم هذه الكلمة، والمناسبة في هذا الموضع هي الموعظة بحال المكذبين؛ لأن إنكارهم البعث تكذيب للرسول وإجرام[30]، ولعلنا نطرح سؤالا هنا هو: لم قال تعالى: كيف كان عاقبة؟ ولم يقل: كيف كانت عاقبة؟ الجواب: " لأن تأنيثها غير حقيقي، ولأن المعنى: كيف كان آخر أمرهم؟"[31]، وكيف حلَ بهم عذاب الله ونكاله؛ جزاء تكذيبهم بما جاء به الرسل من الإخبار بالبعث وغيره، فإن لم تومنوا فالله فاعل بكم مثلهم، وفي قوله: (فانظروا)، جاء الرابط الحجاجي(الفاء) المقتضي للإسراع؛ ليكون الأمر بالوجوب لاسيما إذا كان المخاطب معاندا، فإنه يجب عليه أن يسير في الأرض وينظر متدبرا بعقله وقلبه وبصيرته؛ لأنَ هذا سبيل إلى الهداية، وفي أسلوب الاستفهام بكيف هنا تعظيم، فعاقبة المكذبين المجرمين وخيمة، والعبرة بالعاقبة، وهذا أبلغ ما يكون من العذاب، كما أنه لطف من الله بالعباد وهو تعالى القاضي العادل بين عباده، لقوله:﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) ﴾ [غافر: 20]،وهذه الأحكام التي يقضي بها الله عَّز وجَّل (بصفته المتكلم)، إنما كانت بعد تحذير الناس (المخاطبين)، ووضع القوانين بين أيديهم، وإيراد الحجج الخادمة للنتيجة والهدف الذي خُلقوا من أجله، من خلال إقناعهم ودفعهم إلى الفوز برضا الله ونيل جنات النعيم.

كما وجدنا الأحكام في هذه الآيات أخروية نجد بعض الأحكام الدنيوية،يقول عز وجل: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (٣)﴾ [النساء: 2-3]، يُوجَه الله تعالى خطابه في هذه الآيات إلى أوصياء اليتامى بأن يعطوا اليتامى الذين بلغوا الحلم أموالهم، ونهاهم بأن لا يتبدلوا الخبيث بالطيب؛ أي أن لا يستبدلوا الحرام عليهم من أموال اليتامى إلى أموالهم الحلال لهم فاستعمل عز وجل أسلوب الأمر الطلبي في إيراد الحجج وتواليها:

- ح1: وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ.

-ح2: وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ؛ أي الحرام بالحلال أو ما شابه من تبديل الشيء الجيد بالرديء.

-ح3 : وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ؛ أي لا تخلطوهم.

- ن: إنه كان حوبا كبيرا؛ بمعنى إثما عظيما.

فالعلاقة الحجاجية هنا علاقة تعليلية تفسيرية، وهذه النتيجة تُوضَح نكران فعل من أخذ أموال اليتامى بغير حق وضمَها إلى أمواله؛ لأن في ذلك ظلم منهم لليتامى، وإثم عليهم كونهم أخذوا أموال الأيتام بالباطل، والحجج الثلاث السابقة التي ربط بينها حرف العطف (الواو)الذي أدى وظيفة حجاجية خدمت هذه النتيجة، وبالتالي سار البرنامج الحجاجي في اتجاه في واحد، والسياق هنا سياق الوجهة الحجاجية الواحدة وليس سياق تعارض حجاجي، وعندما ننتقل إلى المقطع الثاني أو الآية التي بعدها، نجدها تتضمن توضيحا لمجموعة من القضايا المرتبطة بالنتيجة الواردة في الآية التي سبقتها؛ حيث يبين الله تعالى لأولياء اليتامى أنهم إن خافوا أن لا يعدلوا في صداقهن، ويبلغوا به صدقات أمثالهن، فلا ينكحوهن، ولكن ينكحوا غيرهن اللَواتي أحلَهن الله لهم وطيَبهن، من واحدة إلى أربع، وإن خافوا أن يجوروا= إذا نكحوا من الغرائب أكثر من واحدة= فلا يعدلوا، فينكحوا منهن واحدة...[32] ، نلحظ أن في قوله تعالى: (وإن خفتم...) شرط وجوابه (فانكحوا) جاء مقرونا بالفاء التعقيبية الجوابية، هذا الرابط اللغوي الحجاجي الذي أدى وظيفة تركيبية ودلالية؛ حيث وقعت بعد فعل الأمر تسديدا لأولياء اليتامى، حين ظنهم وخوفهم ألا يعدلوا في حق اليتامى، ونلحظ أن (إن) شرطية جازمة وضعت شروط خاصة، فليس المقصود من الآية التعدَد، بل يُفضَل أن يكون الزواج مقصده إقساط في اليتامى، وعدم الطَمع في أموالهن سواء زوجنهن أو تزوجنهن؛ وفي قوله: (ما طاب لكم من النساء) ؛أي ما حل لكم من النساء، ذكر "ما" تنزيلا للإناث منزلة غير العقلاء؛ لأنه " نُحي ب "ما" منحى الصفة وهو الطيَب لا تعيين ذات، ولو قال : (من) لتبادر إلى إرادة نسوة طيبات معروفات بينهم"[33] ، وفي قوله مثنى وثلاث ورباع أفاد الرابط الحجاجي الواو الجمع المطلق، الذي يفيد حل هذا المجموع (مثنى، ثُلاث، رُباع)، وقوله تعالى: (من النساء)، استُخدم حرف الجر (من) الذي أفاد التبعيض وتسمى(من)البيانية؛ لأنها جاءت بعد اسم مبهم (ما)، فتكون مبينة له، ثم يقول مرة أخرى: (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)، أي ظننتم ألا تقيموا العدل بينهن فالنتيجة: أن تنكحوا واحدة أو استمتعوا بما ملكت أيمانكم، فنلحظ هنا الرابط (أو) أفاد التخيير لا العطف إلا من باب عطف الجمل؛ لأنه لو أفاد العطف لاختل المعنى؛ حيث لا يصح الزواج بالأمة لأنها مملوكة بعقد أقوى من النكاح، فإن السيد يملك الرقبة والمنفعة، بخلاف الزوج الذي يملك إلا المنفعة، وقوله: (ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا)، ذلك: اسم الإشارة العائد على النكاح مثنى وثلاث ورباع، إذا كان هناك شك وخوف من عدم الإقساط في اليتامى، فنكاح واحدة خير وأقرب من عدم الجُور، فهذا الخطاب الحجاجي القانوني من أبلغ الخطابات التي تُبين للناس، وتبلغهم بكيفيات التعامل والحكم بالعدل في الدنيا، مستخدما حججا واقعية توضيحية؛ ليكون الفوز في الدنيا والآخرة، وغير هذه الأمثلة الحجاجية القانونية وغيرها من صور الحجاج كثير في الخطاب القرآني، ولا شك أن ما ساقه هذا البحث المتصل بصور الحجاج ووظائفها الإبلاغية في القرآن الكريم قليل من كثير جدا، ولكن الحسب من ذلك تقريب الصورة، وإعطاء فكرة عامَة لهذا الموضوع.

خاتمة:

سعينا من خلال هذا المقال إلى الكشف عن صور الحجاج ووظائفها الإبلاغية التي توافرت في الخطاب القرآني، وذلك بتحليل بعض النماذج التَطبيقية من القرآن الكريم، مستلهمين فيها روح التراث البلاغي، مع الإفادة بما أمكننا الوقوف عليه من الدراسات اللسانية الحديثة. ويمكن أن نوجز أهم النتائج التي توصلنا إليها فيما يأتي:

- نجد ملامح الحجاج مُتأصلة في التراث اللغوي العربي وتحديدا في الدرس البلاغي، وتبرز من خلال ما قدَمه الكثير ومنهم أحد أبرز النماذج العربية " الجاحظ " في تنظير بلاغة الإقناع ووضع أسسها؛ وكذلك مفهوم البيان؛ حيث نستشف التّوجّه الحجاجي اللغوي والمنطقي.
- من خلال المقابلة بين الدَرسين العربي والغربي نصل إلى أنّ الحجاج وسيلة يتوخاها كلّ متكلم يبتغي إقناعا، ولذلك لا ينفك عنه أي خطاب تواصلي (عادي أو فني)، كما نصل إلى أن الدَرس الحجاجي ليس حكرا على أمة دون أخرى، وإنما الأمر مبني على تنوَع الأفكار واختلاف الأنظار.
- القرآن الكريم زاخر بالحجاج والمنطق والاستدلال؛ فهو خطاب من الله تعالى موجه لكافة البشر.
- تعدَدت صور الحجاج القرآني بين حجاج محادثي ولغوي، وغلبة الحجاج اللغوي من خلال الأدوات اللغوّية وأدوات الربط المُدعمة للحجاج.
- دمج الخطاب القرآني دلالة الألفاظ بالقُوة الإبلاغية والتأثيرية والإقناعية لها، كما ربط الخطاب بمجموعة من الروابط والعوامل الحجاجية، بغية تقوية المعنى والحثَ على تحقيق الغاية التي خلق الإنسان من أجلها.
- تداخلت صور الحجاج في القرآن الكريم؛ حيث امتزج الحجاج اللغوي ضمن الحجاج المُحادثي، والحجاج المحادثي ضمن الحجاج اللغوي وهكذا...ممَا يدلّ على سعة لغة القرآن الكريم، وقدرة المتكلم به عزّ وجلّ.
- إنّ مظاهر الحجاج وطبيعة صوره تختلف من آية إلى أخرى، وذلك راجع لعدد الروابط الحجاجية ونوعها ووظيفتها،كما أنّ بعض الآيات لها طابع حجاجي قوي، وبالتالي تحقَق التأثير والإقناع، وهذا في تناسب وانسجام تام مع مضمون الآيات.
- القرآن الكريم خطاب من الله تعالى موجه لكافة البشر نزل باللغة العربية، فهو خطاب لا يُفهم إلا بمصطلحاته وعلومه، يقوم على الحجاج والمنطق والاستدلال، هذا المبحث العربي الأصيل الذي يُرجى فهمه وتطبيقه من خلال التأصيل له بالعودة إلى التراث اللغوي العربي.

وفي الختام نرجو أن نكون قد وُفقنا في عرض مادتنا العلمية والتطبيقات المصاحبة لها، وأن يكون عملنا خالصا لوجهه الكريم.

الإحالات:

[1]- ينظر: السيوطي، جلال الدين، 1998م، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج1، ص24.

[2]- سيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، 1988م، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، ج1، ص25-26.

[3]- هنداوي، عبد الحميد أحمد يوسف، 2008م، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ص67-68 -69.

[4]- ينظر: المرجع نفسه، ص76.

[5]- الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر، 1998م، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط1،ص74.

[6]- علوي،حافظ إسماعيلي، 2010م،الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة العربية، الحجاج حدود وتعريفات، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن،ج1، ص2.

[7] - بلانشيه،فيليب، 2007م، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية- سوريا،ط1، ص82-83.

[8]- ينظر: علوي، حافظ إسماعيلي، الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة العربية،ص79.

[9]- الزمخشري،جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، 1998م، الكشاف، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ج6، ط1، ص5.

[10] - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، 2001م، البيان والتبيين، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ج1، ص 56.

[11]- مشبال، محمد، 2011م، التصوير والحجاج نحو فهم تاريخي لبلاغة نثر الجاحظ، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج10، ع2، ص155.

[12]- العمري، محمد،1999م، البلاغة العربية: أصولها وامتدادها، إفريقيا الشرق، المغرب،ط1، ص194.

[13]- ينظر: محمد سالم، محمد الأمين، 2008، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان،ط1،ص215.

[14]- ينظر: صمود، حمادي، 1989م، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس الهجري، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ص185.

*- بيرلمان وتيتيكا: شاييم بيرلمان الفيلسوف البلجيكي وزميلته لوسي أولبرخت تيتيكا، باحثين تركا بصمتهما الواضحة في حق التأليف الحجاجي من خلال مؤلفهما:" مصنف الحجاج- البلاغة الجديدة الذي صدر سنة1958، وينطلق المؤلفان من الديناميكية التي تربط المتكلم بالجمهور، ويكرسان جزء مهما من التفكير على الجانب اللفظي للتقنيات التي تهدف إلى الحصول على الاتساق.

[15]-ينظر: بوزناشة، نور الدين، 2010م،الحجاج في الدرس اللغوي الغربي، مجلة إنسانية،الجزائر،ع44.www.ULUM.nl،2022/12/5م.

[16]-Chaïm Pereleman et Lucie Olbrechts-Tyteca, traité de l'argumentation, 5ene édition de l'université debruwelles, 1992, p5.

[17]- ينظر: عبد الرحمن، طه، 2000م، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ص38.

[18]- الدريدي، سامية، 2005م، الحجاج في الشّعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن 4، عالم الحديث، إربد، الأردن، ط1،ص21.

[19]- ينظر: الشبلي، ثائر، 2020م، الحجاج مفهومه وأنواعه في ضوء القرآن الكريم (سورة الأعراف نموذجا)، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، مج2، ع7، جامعة آيدن- تركيا، ص720.

[20]- ينظر: العلمي، عبد الواحد التهامي، 2015، نحو منهج بلاغي لتحليل النص النثري العربي القديم،مجلة علامات، جدة-السعودية، ع84، ص54.

[21]- ينظر: الشبلي، الحجاج مفهومه وأنواعه في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص721، 722.

[22]-حاجي أحمد صفر وغزال محمد، 2019م، أدوات الحجاج القانوني وتقاناته: الأحكام في المحاكم القطرية نموذجا، مجلة الجنان، جامعة قطر، ص14،13.

[23]- أبو حمدان، سمير،1991م، الإبلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدولية، بيروت، ط1، ص8.

[24]- ينظر: المرادي، الحسن بن قاسم، 1992م،الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1،ص154 - 173.

[25]- ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر،1984،تفسير التحرير والتنوير،الدار التونسية، تونس، دط، ج3، ص180 و181.

[26]- ينظر: ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، دط، مج1، ص 242، والزمخشري، جار الله أبو القاسم، 1430هـ- 2009م، تفسير الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ج3، ط3، ص163و164.

[27] - الرازي، فخر الدين، 1981م، التفسير الكبير، دار الفكر، لبنان- بيروت، ج29، ط1،ص115.

[28]- ينظر: الرازي، المرجع السابق، ج1، ص181و182و183، وابن عاشور، 1984، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية، مرجع سابق، ج، ص242.

[29]- ابن عاشور، مرجع سابق، ج11، ص283.

[30]- ينظر: ابن عاشور، مرجع سابق، ج18، ص 26.

[31]- الرازي، مرجع سابق، ج24، ص214.

[32]- ينظر: الطبري، 1994م، أبو جعفر محمد بن جرير، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، سوريا، مج، ص390 و391.

[33]- ابن عاشور، مرجع سابق، ج4، ص224.

المراجع:

✓ **المراجع باللغة العربية:**

- القرآن الكريم.

1- السيوطي، جلال الدين، 1998م، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

2- سيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، 1988م، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3.

3- هنداوي، عبد الحميد أحمد يوسف، 2008م، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت.

4- الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر، 1998م، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط1.

5- علوي،حافظ إسماعيلي،2010م،الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة العربية،ج1، الحجاج حدود وتعريفات، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن.

6- بلانشيه،فيليب، 2007، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية- سوريا،ط1.

7- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، 1430هـ- 2009م، تفسير الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ج3، ط3،

8- الزمخشري،جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، 1998م، الكشاف، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ج6، ط1.

9-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، 2001م، البيان والتبيين، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ج1.

10- العمري، محمد ، 1999م، البلاغة العربية: أصولها وامتدادها، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1.

11- محمد سالم محمد الأمين، 2008م، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1.

12- صمود، حمادي، 1989م، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس الهجري، منشورات الجامعة التونسية، تونس.

13- عبد الرحمن، طه، 2000م، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط2.

14- الدريدي، سامية، 2005م، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن 4هـ، عالم الحديث، إربد، الأردن، ط1.

15- أبو حمدان، سمير، 1991م، الإبلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدولية، بيروت- لبنان، ط1.

16- المرادي، الحسن بن قاسم، 1992م،الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1.

17- ابن عاشور، محمد الطاهر، 1984م، تفسير التحرير والتنوير،الدار التونسية، تونس، ج3.

18- بن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، مج1، دط.

19- الرازي، فخر الدين،1981، التفسير الكبير، دار الفكر، لبنان- بيروت، ج29، ط1.

1- مشبال، محمد، 2011م، التصوير والحجاج، نحو فهم تاريخي لبلاغة نثر الجاحظ، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج10، العدد2.

2- العبيدي، علي، 2007م،مراتب الكلام العربي في المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده الأندلسي ج1، مجلة ديالي، العراق، مج2،العدد26..

3-الشبلي، ثائر، 2020م، الحجاج مفهومه وأنواعه في ضوء القرآن الكريم (سورة الأعراف نموذجا)، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، ، جامعة آيدن- تركيا،مج1، العدد7.

4- العلمي، عبد الواحد التهامي، 2015م، نحو منهج بلاغي لتحليل النص النثري العربي القديم،مجلة علامات، جدة-السعودية، ع84.

5- حاجي أحمد صفر وغزال محمد، 2019م، أدوات الحجاج القانوني وتقاناته: الأحكام في المحاكم القطرية نموذجا، مجلة الجنان، جامعة قطر،دع.

-Chaïm Pereleman et Lucie Olbrechts-Tyteca, traité de l'argumentation, 5ene édition de l'université debruwelles, 1992.

- بوزناشة، نور الدين،2010م، الحجاج في الدرس اللغوي الغربي،مجلة علوم إنسانية، الجزائر،ع44، www.ULUM.nl،2022/12/5م.